المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية

المحور الثالث

(الاستثمار في اللغة العربية على مستوى المجتمع)

بحث بعنوان

دور اللغة العربية في تطوير المجتمع

اعداد : د. انتصار ميلود بن زايد

كلية الآداب – زوارة

جامعة الزاوية (ليبيا)

بسم الله الرحمن الرحيم

دور اللغة العربية في تطوير المجتمع

ان اللغة العربية وعاء الفكر ومرآة الحضارة الانسانية التي تتكس عليها مفاهيم التخاطب بين البشر ووسيلة التواصل السهل وعليه اهتم بها الانسان وطور آلياتها ليمكنها من الضروريات لتصبح قادرة على احتواء كل جديد .

ماهية اللغة العربية :

أصل هذا اللفظ لغويا : اللغة : فعلة من لغوت أي تكلمت أصلها لغوة مثل كترة وقلة وثبة . وقد حدث فيها إعلال بالنقل حيث نقلت حركة الواو الى الساكن الصحيح قبلها ثم حذفت الواو للتخفيف وعوض عنها الهاء فأصبح اللفظ "لغة " وتجمع على لغات ولغون مثل كرات وكرون)(بن جني - ج1 - ص33)

تعريف اللغة في اصطلاح العلماء :

ان تعريف اللغة في الاصطلاح : (هي ما يعبر بها كل قوم عن اغراضهم)(الجرجاني - ص244) وهو تعريف مختصر يجعل الصوت أهم أساس من أسس اللغة وعرفها علماء اللغة المحدثون موضحين في التعريف تركيبها وأساسها ووظيفتها بقولهم (اللغة منظومة من العلامات والمعاني أساسها الصوت تعتمد في أداء وظيفتها على رموز اعتباطية تستطيع بها مجموعة من البشر التفاهم والاتصال)(بن جني - مصدر سابق - ص35)

اللغة أولا وقبل كل شيء نظام من الرموز الصوتية وتكمن قيمة أي رمز في الاتفاق عليه بين الاطراف التي تتعامل به ، وقيمة الرمز اللغوي تقوم على علاقة بين متحدث أو كاتب هو المؤثر وبين مخاطب أو قارئ هو المتلقي)(حجازي - ص10) .

كما إن اللغة وسيلة التعامل ونقل الفكر بين المؤثر والمتلقي ، وصدور هذه الرموز الصوتية اللغوية لأداء معان محددة متميزة يعنيها المتحدث ويفهمها المتلقي - معناه اتفاق الطرفين على استخدام هذه الرموز للتعبير عن الدلالات المقصودة ، وبهذا يكون هناك ارتباط غير مباشر بين الجهاز العصبي للمتكلم والجهاز العصبي للمخاطب وما اللغة الا وسيلة الربط بينهما واداة التعبير .

وهي من اللغات السامية المتجذرة في التاريخ الانساني وهي لغة القرآن التي شرفها الله تعالى بنزول كلامه المقدس ، حيث قال عنها عز وجل ((إنا انزلنا قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)) يوسف آية 2.

واللغة ليست من الامور التي يصنعها فرد معين أو أفراد معينون ، وإنما (تخلقها طبيعة الاجتماع وتنبعث عن الحياة الجمعية ، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل للأفكار ، وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاما لغويا يسير عليه مجتمعه فيتلقاه عنه تلقيا بطريق التعليم والمحاكاة ، كما يتلقى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى ، ويصب أصواته في قوالبه ، ويحتذيه في تفاهمه وتعبيره)(عبد الواحد وافي - ص7).

وعليه فإن اللغة من الأمور التي يرى كل فرد نفسه مضطرا الى الخضوع لما ترسمه ، وكل خروج على نظامها ، ولو كان عن خطأ أو جهل ، يلقي من المجتمع مقاومة تكفل رد الأمور الى نصابها الصحيح ، وتأخذ المخالف أنواع الجزاء ، فإذا أخطأ فرد في نطق كلمة ما ، أو استخدمها في غير مدلولها ، أو خرج في تركيب عبارته عن القواعد التي ترسمها لغته ، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه ، ورموه بالغفلة والجهل .

ومن البديهي القول بأن (اهتمام الانسان باللغة ودراستها قديم قدم اللغة ذاتها ، فهي أولا من الظواهر الحياتية الرئيسية وهي كذلك في صلب العلاقات البشرية التي تستند الى التخاطب والتواصل)(لطفي - ص15) ، وقد شغل العقل الانساني منذ تكونه بها وجعلها من اولى اهتماماته ، واعتبر معرفة كنهها جزءا من سعيه لمعرفة كنه مواضيع الفلسفة الانسانية الاولى .

خصائص اللغة العربية :

ان خصائص اللغة العربية هي خصائص الشيء ما انفرد به دون غيره من صفات أو مزايا ، وخصائص كل شيء انما تكون بحسبه وبحسب ما يراد له فخصائص اللغة (لا بد ان تكون مزايا وصفات تخصها من حيث هي لغة سواء أكانت في مفرداتها من حيث الغزارة وحسن التأليف مثلا - أم معانيها من حيث دقة التعبير أو علاقة التناسب بين الالفاظ والمعاني ، أم في الأساليب من وجوه المعاني ودرجاتها)(حسن جبل - ص7) .

والائمة الذين ذكروا للغة العربية خصائص ونوهوا بها كانوا يقصدون ولا شك ما تنيه كلمة (خصائص) تلك ، وهي انفراد الشيء بما لا يوجد في غيره ، فهم يعنون بخصائص اللغة العربية الأمور (المستحسنة) التي تنفرد بها اللغة العربية ، ولا يوجد في غيرها من اللغات .

وهذا الذي يعنونه بعبارة (خصائص اللغة العربية) وله جانبان : (تفصيل ما تم نسبه من خصائص للغة العربية وشرحه وبيان مدى تحققه في العربية ووجه استحسانها تم تحقيق دعوى الاختصاص وذلك بالمقابلة بين العربية وغيرها بشأن موضوعات الخصائص وفي حدود المتاح من المعرفة والمعلومات عن اللغات الاخرى)(حسن جبل - مرجع سابق - ص6).

ولعل من أكثر النصوص جمعا للخصائص ما سنذكر للجاحظ وابن قتيبة وابن فارس : يقول الجاحظ (ولا بد ان نذكر ..... الدليل على ان العرب انطق ، وان لغتها أوسع ، وان لفظها أدل وان اقسام تأليف كلامها أكثر ، والامثال الي ضربت فيها أجود وأسير (وان نذكر) الدليل على

ان البديهة مقصورة عليها ، وان الارتجال والاقتضاب خاص فيها ، وما الفرق بين اشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الروم والفرس شعرا ...)(الجاحظ ـ ص383- 385)

أما ابن قتيبة فقد ذكر من خصائص اللغة (بالبيان وزيادة حروف المباني في العربية عنها في غيرها ، والاعراب ، والشعر ظن والعروض ، وتغير بعض حروف الكلمة بقدر ما تغير من مدلولها نحو النضج ، والنضج وهو ما سماه ابن جنى التصاقب وارتباط الدلالة بالصيغة في نحو ضحكة بالضم ، وضحكة بضم ففتح ، وفي نحو مبطن ، وبطين ومبطان ، وبطن (كحذر) ، ومبطون) (ابن قتيبة ـ تأويل مشكل القرآن ـ ص32ثم 86 - 298) .

وقد تبعه ابن فارس في أكثر من ذلك وأضاف الترادف ،(كما أضاف اختصاص العرب بحفظ الأنساب وليست وثيقة الصلة بالعربية إلا ان احتسبناها تمثل سندا للغة ثم ذكر كثيرا من الخصائص الجزئية التي سماها سنن العرب منثورة في عشرات الأبواب) (الصاحبي ـ صقر ـ ص86،117،124) نذكر منها :

ـ أن لكل حرف مخرجه وصوته الخاص به

ـ سعة مفرداتها وتراكيبها

ـ سعتها في التعبير وقدرتها على التعريب واحتواء الالفاظ من اللغات الاخرى بشروط دقيقة

ـ غزارة صيغتها وكثرة أوزانها

ـ ظاهرة المحسنات البديعية مثل المجاز والطياف والجاس والمقابلة والسجع والتشبيه .

ـ فنون اللفظ كالبلاغة والفصاحة وما فيها من محسنات كما أضاف الفارابي حسن التأليف .

اللغة العربية والحضارات القديمة :

أن مجموعة من الباحثين يرون أنّ ابتداء الخلق كان في بلاد العرب، وبالتحديد في شبه الجزيرة العربيّة وعلى جبل اسمه "كور" (مجمرة الحدّاد) وأطلق عليه السومريون اسم "شدا" أو "شد" (أي السدّة أو العرش)، ومنه انطلقت الحياة إلى أقاصي الأرض().. وأنّ لفظة "لغة" العربيّة هي أول ما أطلق من أسماء على الكلام، فهي: "لوجو" أو "أو(لوغو") Logo (الكلمة)، وهي من الفعل العربي القديم (السرياني() والفينيقي): "لجا = لغا، لهج، نطق، تكلم(). وأنّ الكلمة كانت في أساس التفكير العربي تعني البناء، وكذلك انتقلت إلى التفكير الديني، ففي المزمور نجد هذا المعنى: "بكلمة الرب صنعت السماوات إنّه قال فكان، وأمر فوجد"()، وفي الإنجيل أيضاً: "في البدء كانت الكلمة، والكلمة كان لدى الله"(). وفي القرآن الكريم: "وإنّ قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون"(). كما ارتبط البناء بالقول الإلهي: "اِقرأ"، الكلمة الأولى التي أطلقت فعل البدء ببناء كون جديد ونهائي، في حسبان الإسلام آخر الديانات السماويّة، وأنّ النبيّ محمداً (ص) آخر الأنبياء الذين سلّم إليهم أمر بناء الكون..

والدكتور أحمد داود، الباحث العربي السوري في تاريخ الحضارات، ينطلق في كتابه "تاريخ سوريا الحضاري"، من فكرة أنّ التدفق البشري الذي استوطن بلاد ما بين النهرين ووادي النيل ومنطقة سوريا القديمة، هو كلّه من أساس عربيّ.. وقد أكّد فكرته بمزيد من الأدلّة والبراهين

عليها، مستمدة من مراجع ومصادر عربيّة وغير عربيّة، ومن الآثار والنقوش وتواريخ الأمم، وهو يتعقب الفكرة خارج بلاد العرب، ويؤكد أنّ اليونان يدينون للعرب بكثير من نسبهم وتاريخهم وعلومهم وتكوّنهم.. وأنّ العرب السوريين هم السلالة الكبرى، وقد أنسلت سلالات فرعية منها: الفينيقيون والمصريون والفرس والأكراد والأتراك والسعوديون والهنود والأحباش والبربر واليونان والإغريق والطليان والكلتيّون والإسبان...

نشأة اللغة العربية وتطورها:-

اللغة العربية هي إحدى اللّغات السّاميّة ،وقد تباينت آراء العلماء في تعيين منشأ هذه اللغات وما قد يكون لها من الصّلة باللّغة السّاميّة الأصلية .

والثابت أنّ بين اللغات الساميّة قرابة واضحة، و أنها جميعاً وليدة لغة سامية عامّة قد بادت وصارمن المتعذّرعلينا أن نعرف شيئاً يذكرمنها ، والذي نعرفه إنّما هو نتيجة مقارنات نقيمها بين شتّى الفروع. **(جرجي - ص26)** .

ويرون أنّ صفات الساميّين العنصريّة، و منها الإيمان الشديد والتعصّب والتصوّر، تدلّ على اصل صحراويّ يجعلونه بلاد العرب.
يرى جماعة من الباحثين والمحققين أنّ العربيّة أقرب من أخواتها إلى الأصل السّاميّ وإن كانت الآراميّة أقدم منها عهداً ؛ و قد تكون العربيّة أرقى اللّغات الساميّة وأشدّها فصاحة و إتساعاً.
يذكر الفاخوري نقلاً عن الدكتورطلس حول تطور اللغة العربيّة حيث يقول:«إنّ أقدم النصوص العربيّة الفصيحة الّتي عُثر عليها ترجع إلى الفترة الّتي تمتدّ من القرن الثالث بعد الميلاد إلى القرن الخامس . وهذه النصوص هي الشعر الجاهلي ، والحكم الجاهليّة ، لكن من يدقّق في هذه النّصوص يجدها كاملة مهذّبة، ذات نحو متّسق وصرف منظم، و قواعد عروضيّة و شعريّة راقية،ولا شكّ في أنّ اللّغة العربيّة قد مرّت بأطوار بعيدة العهد تطورت فيها وتدرجّت إلى هذا الكمال الّذي وجدناه في الشعر الجاهلي ثمّ في القرآن.» **(ابن خلدون - ص87)**

وإذا تدبرنا تاريخ كلّ ظاهرة من مظاهر الأمة كالآداب أو اللغة أو الشرائع أو غيرها باعتبارما مرّ بها من الأحوال في أثناء نموّها وإرتقائها و تفرعها ، رأيتها تسير في نموها سيراً خفياً لا يشعر به إلا بعد إنقضاء الزمن الطويل ، ويتخلل ذلك السير البطئ و ثبات قويّة تأتي دفعة واحدة ، فتغير الشؤون تغيراً ظاهراً وهو ما يعبرون عنه بالنهضة ، وسبب تلك النهضات في الغالب احتكاك الأفكار بالإختلاط بين الأمم على إثر مهاجرة إقتضتها الطبيعة من قحط أو خوف ... أو يكون سبب الإختلاط ظهور نبيّ أو متشرع أو فيلسوف كبير أو نبوغ قائد طمّاع يحمل النّاس على الفتح و الغزو أو أمثال ذلك من الإنقلابات السياسيّة أوالإجتماعيّة **(دياب - ص89)** - فتتحاك الأفكار وتتمازج الطبائع، فتتنوع العادات و الأخلاق و الأديان والآداب ،واللّغة تابعة لكلّ ذلك بل هي الحافظة لآثار ذلك التغيير فتدخرها قروناً بعد زوال تلك العادات أو الآداب أو الشرائع، و إذا تبدل شئ منها حفظت آثار تبديله.

فاللغة العربية تعرضت لهذه الطوارئ مثل سائر اللغات الحيّة ، وتقلبت على أحوال شتى ، فتنوعت ألفاظها بالنحت و الإبدال و القلب ، و دخلها من الألفاظ الأعجميّة في أعصر مختلفة قبل أن تدوّن وتضبط في أزمنة لم يدركها التاريخ.

كانت اللغة العربية قبل الإسلام لغات عديدة تعرف بلغات القبائل ، وبينها إختلاف في اللفظ والتركيب كلغات تميم و ربيعة و مضر وقيس و هذيل و قضاعة وغيرها كما هو مشهور ... وأقرب هذه اللغات شبها باللغة السّاميّة الأصليّة أبعدها عن الإختلاط . وبعكس ذلك القبائل التي كانت تختلط بالأمم الأخرى كأهل الحجاز مما يلي الشام و خصوصاً أهل مكة من قريش، فقد كانوا أهل تجارة و سفر شمالاً إلى الشام و العراق و مصر و جنوباً إلى بلاد اليمن وشرقاً إلى خليج فارس و مكا وراءه و غرباً إلى بلاد الحبشة.

وفضلاً عمّا كان يجتمع حول الكعبة من الأمم المختلفة وفيهم الفرس والأنباط واليمنيّة والأحباش و المصريون ، غير الذين كانوا ينزحون إليها من جالية اليهود والنصارى . فدعا ذلك إلى إرتقاء اللغة بما تولد فيها أو دخلها من الإشتقاقات و التراكيب مما لا مثيل له في اللغات الأخرى. (جرجي - ص37)

اسباب تكوين اللغة العربية الفصحى:

جاء فِي معظم كتب التاريخ أنّ اسباب تكوين اللغة الادبية الفصحى فِي عصر ما قبل الإسلام عديدة ولكن اشهرها تأثيراً هي :

1- الأسوق :

وهي أمكنة منتشرة في شتّى الجزيرة العربيّة كان العرب يذهبون إليها في مواسم معيّنة لشؤون تجارية و أدبيّة ونسبيّة و غيرها من الشؤون السياسيّة والإجتماعية و الأدبيّة و...فيعالجون فيها مفاديات الأسرى ، والخصومات، وينصرفون إلى المفاخرة و المنافرة بالشعر والخطب في الحسب والنّسب و الكرم و الفصاحة والجمال والشجاعة،كما ينصرفون الى مسابقات الخيول و إقامة الألعاب، وتبادل عروض التجارة و غير ذلك .فكانت تلك الأسواق إشبه بمعارض عامّة يفد إليها الناس من مختلف انحاء الجزيرة ؛ومن أشهرها سوق عكاظ قرب مكة ،و مجنّة و ذو المجاز وكلاهما في ضواحي مكة أيضاً . (جرجي - ص34)

وكما نعلم أن لسوق عكاظ دوراً هاماً في رقيّ اللغة العربيّة حيث كانت مكاناً للتحكيم بين الشعراء والخطباء، فيميز الحَكمُ بين الكلام الجيد من الكلام الغير الجيد ويعلن على الحاصل على الرتبة الاولى في السباق الأدبي .وكان الكلام فيها بلغة يفهمها الجميع ،وكان الشاعر أو الخطيب يتوخّى الألفلظ العامّة و الأساليب في لغة مثالية موحّدة تروق كل سامع، ولا ينفر منها أو يستغربها أحد.فكان منثمب للأسواق أثر بليغ في توحيد اللسان وتعميم اللغة المثاليّة.و تغليب لغة قريش على سائر اللغات ،لأنّ أشهر الأسواق في بلادهم.

2 - قريش:

كانت مكة محطّاً للقوافل من زمن بعيد ، وكانت موطن قريش موضع إجلال العرب لما ورثته من شرف ، و سؤدد ، و ثراء ؛كما كانت مقام الكعبة يفد إليها الحجّاج من جميع الآفاق ، فكان لقريش نصيب وافر في توحيد اللغة ، تهذّب لهجتها بما تأخذه من لغات القبائل الوافدة على بلادها ، مما خفّ على اللسان ، وعذُب فيِ السمع ؛ وكان العرب يقلّدون لسانها ، و الشعراء و الخطباء يؤثرون ما هو من ذلك اللّسان ، لأنّ أهمّ الأسواق كانت في قريش ، و المحكّمين فيها

منهم أحياناً كثيرةً ؛ وكان الشّعر ينتشر من تلك الأصقاع في جميع نواحي البلاد حاملاً إليها لهجة قريش وأُسلوبها . وهكذا كانت اللغة المشتركة المثاليّة قريبةً من لغة قريش كلّ القرب.

3- الحضارات المجاورة :

نستطيع القول بجزم بأنّ عرب الجزيرة لم ينحصروا بمعزل عن تأثيرات الحضارات المتاخمة ، بل كانوا في احتكاك مع جيرانهم ، فأضيت إلى لغة عدنان ثروة الحضارة القحطانية ، وحضارة مصر وفارس ، والحبشة عن طريق التجارة ، أو طريق التنافس بين الحيرة وغسّان ، والفرس والروم من ورائهما ، فكانت اللغة تواصل تطورها مكمّلةً ما ينقصها بما تأخذه من لغات ، تلك الحضارات الواسعة النطاق.

وهكذا وصلت اللغة العربيّة إلى عصرالأدب الجاهلي ،راقيّة ،مزودة بمحاسن لغات عديدة وحضارات كثيرة ، تستطيع التعبير عن كلّ شئ مهما دقَّ وسما ، وتستطيع الإفصاح عن خلجات النفوس و لواعج الصدور ، وتصوير المناظر و الخواطر ، وما إن ظهر فيها القرآن الكريم حتّى ثبّتها ، و عمل على حفظها بالرُّغم من تقلّبات الأيام ، و أحداث الزمان.

هذا ما عثرنا عليه في كتب تاريخ الادب العربي حول نشأة اللغة العربية وتطورها، أمّا بالنسبة لأغراضها فيذكر لنا السيد الهاشمي اغراضاً ثلاثة للغة في الجاهلية وهي كما يلي:

1- كانت اللغة تستعمل في أغراض المعيشة البدوية ، ووصف مرافقها من حِلّ وترحال، و انتجاع كلأ .واستدرار غيث، و استنتاج حيوان.

2- وفي إثارة المُنازعات والمشاحنات ، و ما يتبعها من الحضّ على إدراك الثّأر .والتفاخر بالإنتصار ، والتباهي بكرم الأصل و النّجار.

3- شرح حال المشاهدات والكيفيات و الإخبار عن الوقائع و القصص وغير ذلك.

دور العلوم العربية في تغير المجتمعات :

اما عن تاريخ اللغة نجد أن هناك العديد من الآراء حول أصل اللغة العربية لدى قدامى اللغويين العرب فيذهب البعض الى ان (يعرب) كان أول من أعرب في لسانه وتكلم هذه اللسان العربي فسميت اللغة بإسمه ، وتنتمي العربية الى اسرة (اللغات السامية المتفرعة من مجموعة من اللغات الافريقية الآسيوية ، واللغات السامية هي لغة (حضارة الهلال الخصيب القديمة كالأكادية والكنعانية والآرامية ، واللغات العربية الجنوبية ، وبعض لغات القرى الافريقية كالأمهرية ، وعلى وجه التحديد يضع اللغويون اللغة العربية في المجموعة السامية الوسطى من اللغات السامية الغربية ، فتكون بذلك اللغات السامية الشمالية الغربية أي الآرامية والعبرية والكنعانية هي أقرب اللغات السامية الى العربية .

ففي بداية العصر الاموي بدأت ترجمة العلوم الى اللغة العربية ، أول من بدأ حركة الترجمة في ذلك العهد خالد بن يزيد حفيد معاوية الأكبر المتوفي سنة 704 م ، وعندما ازدهرت الحركة الادبية في العصر العباسي ، و خاصة في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون ، ترجمت كتب الفلسفة والمنطق و الطب ، و النجوم و الرياضيات ، و التاريخ والكيمياء

والتشريح وغيرها من العلوم من اللغات اليونانية ، والفارسية ، و السريانية ، و الهندية والكلدانية إلى اللغة العربية ، مما أوجد نهضة علمية وأدبية منقطعة النضير في تاريخ اللغة العربية امتدت إلى كثير من أقطار اسيا و أوروبا ، و أفريقيا ، فطرأ بواسطتها تطور على اللغة العربية كان من نتائجه وجود لغة علمية تقاس بمعيار المنطق و البرهان العقلي كما وضع الكثير من مصطلحات العلوم و الفنون وضعية كلمات جديدة في جميع العلوم والمعرفة.

و ابان الفتوحات العربية التي امتدت إلى كثير من انحاء العالم ، خالط العرب عددا من الشعوب وتعلموا لغاتها، واقتبسوا منها بعض العلوم والفنون ، فنتج عن ذلك اندماج طائفة من كلمات هذه الشعوب في لسان العرب .

كما خالط العرب السريان ، فاقتبسوا منهم مئات الكلمات الخاصة بالزراعة والصناعة والتجارة والملاحة ، ومما يلفت النظر ان اكثر الكلمات العربية المختصة بالزراعة آرامية الاصل ، وقد غزا العرب إيران سنة 652 ، واستمرت سيادتهم لهذه البلاد العريقة في الثقافة والمدينة نحو ستة قرون ، فأخذوا عنها قسطا كبيرا من تلك المدينة ، واقترضوا من الكلمات الفارسية اكثر مما اقترضوه من سائر اللغات ، وقد احتلوا إسبانيا سنة 711م واستمر حكمهم فيها نحو سبعة قرون

قبيل الاسلام كانت تسمى اللغة العربية (لغة مصر) وكانت تستخدم في شمال الجزيرة بينما كانت تسمى اللغة العربية الجنوبية (لغة حمير) نسبة الى أعظم ملوك اليمن آنذاك ، حيث كان العرب في شمال الجزيرة العربية حين بزوغ الاسلام يتكلمون بلهجات متعددة وإن كانت لغة قريش شائعة بينهم. وكان الجنوبيون يتكلمون بلغة حمير. والقرآن نزل بلهجة قريش فوحّد شمال الجزيرة على هذه اللغة ثم توغلت لغة القرآن الى الجنوب فأصبحت الجزيرة العربية كلها تتكلّم بهذه اللغة. فالقرآن له الفضل في توحيد اللغة العربية وانتشارها و بقائها. و ظلت اللهجة القريشيّة في إنتشارها تكتسح ما يقابلها من لغات ، فاتخذتها شعوب عديدة لساناً لها ، وأصبح لسانها الأدبي من أواسط آسيا حتى المحيط الأطلسي ، يعبرون به عن مشاعرهم و عقولهم ،كلّ ذلك بفضل القرآن الكريم ، الّذي حفظ العربيّة من الضياع ، وجعلها لغة حيّة خالدة منتشرة في بعض أقطار الارض **(ابن خلدون ص57)** .

كما أسهم القرآن إسهاماً فعّالاً في ظهور معانٍ لم تكن معروفةً من قبل مثل: الفرقان و الكفر و الإيمان و الإشراك و الإسلام والصوم والصلاة والزكاة و الركوع والسجود .

ولم يقف الأمر عند هذه المعاني فقط، بل كان للقرآن مضمونه الذي لم يكن يعرفه العرب كالدعوة إلى عبادة الله –والبعث والعقاب و الثواب- فشرع للناس ما ينبغي أن تكون عليه حياتهم و ما يسودهم من علاقات.

ونستطيع القول بأنّ القرآن هذّب اللغة العربيّة من حواشي اللفظ وغريبه، وأضفى عليها لوناً من الطلاوة، مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض ،فاللفظ على قدر المعنى.

من هذا النبع الصافي أخذ الأدباء ينهلون ويسيرون على هديه في خطبهم وأشعارهم وكل آثارهم الأدبيّة ، فهو معجمهم الأدبي واللغوي. **(الهاشمي - ص154)**

و نستطيع القول بـأنّ القرآن الكريم منطلق الحركة العلمية التي نشأت حول القرآن بمرور الزمن، والدافع المحرك وراء كل النهضة العلمية التي شهدها العالم الاسلامي منذ القرن الهجري الاول ، لصيانة لغة القرآن إعرابا و قراءة نشأت علوم النحو والقراءات ، و لفهم مضامينه ظهرت علوم التفسير و أسباب النزول و الناسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه لفهم إعجازه البياني وضعت علوم البلاغة، ولمعرفة أحكامه تفرّع عنه علم الفقه و أصوله وينبغي التأكيد على أنّ العلوم الإسلامية كلها إنما قامت لخدمة القران الكريم

والجدير بالذكر أنّ اللغة العربية قد اتخذت أشكالاً ورسوماً متقاربة ، إلاّ أنّها في نطق الحروف تكاد تكون واحدة.. الأمر الذي يؤكّد لديه تأثير العربيّة في بناء شخصيّة هذه الشعوب ومجتمعاتها ، ولاسيّما في ابتكار عقيدة التوحيد، وتفصيل قضايا الخلق، ونشوء الحياة، والتماهي بين العلم والدين، ومفاهيم الوحي، والثواب والعقاب، وغيرها كثير من الإسهامات التي وضعت اللبنة الأساسيّة لانطلاق الإنسان في الكون بمفاهيم مختلفة حول شؤون كثيرة.

لعلّ هذه الوقفة ، تعيد إلى الأذهان صورة العربيّة في تجلّيها التاريخي القديم ، وتظهر مدى قوّتها وتفاعلها في مدن مختلفة من خارطة الشرق والغرب.. وهو الأمر الذي هيأه الله لهذه اللغة لتكون رائدة في سوق لغات العالم..

علاقة اللغة العربية بحركة النهضة الغربية :

افسح العلماء الاعلام ومشاهير الفلاسفة من العرب مجالا لتقدم العلوم و الفنون ورفعوا منار المدينة اكثر من خمسة قرون بينما كانت القارة الاوربية بأسرها غارقة في سبات عميق ولما أفاق الغربيون من سباتهم هذا أخذو يترجمون من العربية إلى اللاتينية ولم يقتصروا على كتابات العرب الاصلية بل ترجموا أيضا ما نقله العرب من العلوم عن قدماء الاغريق وتألفت في طليعة سنة 1130م جماعة من المترجمين برئاسة رئيس الاساقفة ريموند وكان فضل هذه الجماعة كبير على البلاد الأوروبية وطلت جامعات أوروبا اكثر من خمسة قرون تعتمد في مواردها العلمية على الكتب العربية . وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت الكتب العربية المقررة في جامعة (tubinjen) أضعاف الكتب اليونانية ، وكانت مؤلفات الرازي وابن سينا تدرس في جامعة الطب الكبرى في مونبلييه حتى القرن الثامن عشر.

وقد كان للعربية تأثير شديد في حياة الغربيين حيث ظهر ذلك في كثير من اللغات الأوروبية ولا مجال الان في هذا المقال لتعداد الكلمات اليونانية والإسبانية والبرتغالية والإنجليزية والفرنسية المقتبسة من العربية اذ كما اقترضنا من الاوربيين ولغات الشعوب الاخرى اقترضوا هم أيضا منا، فقد استمد الإسبان معظم اسماء الريحان والازهار من العربية ، ومن جبال البرانس انطلقت كلمات عربية كثيرة إلى الفرنسية كالبرقوق و الياسمين والقطن والزعفران ، وقد اخذت اسبانيا بواسطة أمريكا اللاتينية من اللغة العربية الشيء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا . وقد زود العرب الذين كانوا قادة البحر الأبيض المتوسط كلا من فرنسا وإيطاليا بكثير من مصطلحات الجيش و الادارة والصيد وغيرها . وجملة القول ان العربية كانت في العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف الفنون والعلوم بل أكثر من ذلك كانت لغة دولية لمصطلحات التجارة والعلوم .

ومنذ اوائل القرن الماضي انعكست الآية فصار المترجمون من ابناء العرب يترجمون الكتب من الإيطالية والفرنسية في العلوم المختلفة فأخذت ذلك انقلابا عظيما في العربية واكتسبت سعة في الاغراض والمعاني والاساليب وطرق التفكير، وكان لأنشاء مدرسة (قصر العيني) في القاهرة أثر كبير على اللغة العربية اذ قام فيها الاساتذة و نقلوا بعض ما كان ضروريا انذاك للطلبة من العلوم العصرية إلى العربية ووضعوا مصطلحات علمية تقابل المصطلحات الغربية فكان لهذا المجهود العلمي الكبير اثر فعال ليس في مصر فحسب بل في الشرق العربي أيضا وصحب ذلك نهضة علمية اخرى في سوريا ولبنان نقلت فيها الكتب العلمية إلى العربية واتسعت هذه الحركة على يد نخبة من الاساتذة وارباب النشر والصحف

ومعنى ذلك قيام اللغة العربية بدور عالمي في انتقال الحضارة ، من المرحلة القديمة فى مصر إلى المرحلة الحديثة والمعاصرة في أوربا الغربية ، والغرب بوجه عام ، أي أنه كان للغة العربية ، ولو لفترة محدودة في تاريخ البشرية دور عالمي، قامت به هو نتاج الفترة المحدودة التي قامت فيها بنقل التراث اليوناني العلمي مثلا كما ذكرنا سابقا إلى أيام الرشيد والمأمون ، لكن سرعان ما طغى عليها مد الفكر المناهض للعلم والفلسفة. وعلى مدى أربعة قرون من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، استطاع الفكر العقلي في أوربا الغربية أن يحقق انتصاره على جمود الفكر وعزوفه عن قراءة آيات الله فى كتاب الكون العظيم المفتوح أمام كل العيون، والذى لغته الأرقام ، وهي المهمة الكبرى التي قام بها بيكون وديكارت وجاليليو، ويجب ألا يغيب عنا هنا أن كل العلماء العظام قادة النهضة الأوربية مؤمنون بالله إيمانًا عميقًا راسخًا من ديكارت إلى كبلر إلى نيوتن إلى أينشتين. كانت الحملة الفرنسية على مصر هي جرس المنبه الذى أيقظ مصر على عالم جديد، وكانت بعثات محمد على إلى فرنسا إيذانًا بإحداث نهضة جديدة تقودها مصر في هذه المنطقة المتوسطة بين الغرب والشرق، وأخذت مطبعة بولاق تريش الجناح الأدبي للغة العربية بما تخرجه من دواوين كبار شعراء العربية، وكانت الثمار سريعة وعظيمة تمثلت فى البارودى وشوقى وإسماعيل صبرى فى الشعر، أما القصة والرواية فقد ذهب محمد حسين هيكل ومن بعده توفيق الحكيم إلى فرنسا التى كانت منبع إبداعهما فى روايات صورت واقع مصر فى أيامهما.

وفى ناحية العلم تابع محمد على بنفسه المبعوثين إلى فرنسا كما أشرف بنفسه على حركة الترجمة إلى العربية وبدأت اللغة العربية تريش جناحيها من الأدب والعلم وتظهر الثمار الناضجة فى مجموعة من أهل الأدب وأهل العلم، من أبرزهم فى الأدب أحمد شوقى وتوفيق الحكيم ، وفي العلم الدكتور على مشرفة فى الفيزياء والدكتور على إبراهيم فى الطب، ولكن حتى فى هذا العصر ظل الخوف والقلق على اللغة العربية قائما وهو خوف وقلق ينم عن اعتزاز الأمة بلغة القومي ، (فالقلق على اللغة العربية من مزاحمة الإنجليزية والفرنسية لها قلق طبيعي وهو قلق مطلوب على أى حال، وكذلك القلق عليها من مزاحمة العامية لها، ويبدو ما يحدث اليوم من قلق على هذه اللغة امتدادا للقلق الذى صوره شوقي وحافظ. ولكن يظل نزول آخر الكتب السماوية الكبرى بها أكبر عوامل الاطمئنان على مستقبل اللغة العربية) ، **(محمد خليفة - ص56)**

أما مسألة جمود اللغة فلم تثبت بتاتا؛ لأن اللغة العربية بطبيعتها لغة متطورة لا تجد حرجا الأخذ من اللغات الأخرى ويكفى وجود ألفاظ غير عربية فى القرآن الكريم

ويذكر بروكلمان أن اللغة العربية التهمت ما حولها من لغات كالحبشية ، والسنسكريتية وغيرهما بل الأهم من ذلك احتواء العربية على ألفاظ فرعونية الأصل ، بل أكثر من ذلك أن ما يقرب من نصف حروف اللغة العربية هى حروف فرعونية كما ذكرنا ، بالإضافة إلى أن صيغًا لغوية مهمة هي صيغة المثنى وواو الجماعة ، والمبنى للمجهول هي صيغ مصرية قديمة ، وقد لاحظ الدكتور عبد المنعم بكير هذه التشابهات بين اللغة العربية واللغة الهيروغليفية وما تلاها من أطوار لغوية وذلك فى أثناء دراسته للهيروغليفية فى إنجلترا ، ونبه إلى ذلك أستاذه هناك كما ذكر فى كتاب اللغة المصرية القديمة فى عصرها الذهبى .

اللغة العربية إذن باقية بإذن الله لا خوف عليها من الاندثار، بفعل كونها لغة آخر كتاب سماوى وبفعل خصائصها الذاتية التي أهمها الإعراب ، أو تنغيم أواخر الكلمات مما حبا شعرها كيانًا موسيقيًا لا نظير له فى الدقة والثراء ، فهناك ستة عشر وزنًا وهناك مئات القوافى فى القصيدة الواحدة ، وبعض هذه الأوزان تعود إلى العصر الفرعونى مثل نشيد عاد الجيش على بحر المتقارب. ويرجع الغنى الموسيقى للشعر العربى إلى المنبع المصرى القديم, واعتبر اللغة العربية الطور الخامس من أطوار لغة مصر القديمة .

وإذا كانت اللغات الأبجدية تطورًا طبيعيًا للغة مصر القديمة ، فإن العربية هي الأقرب إلى اللغة المصرية الأم.، وقيامنا بإبراز العلاقة الوثيقة بين العربية والمصرية القديمة هو مما يمنح العربية قيمة عالمية لما تتمتع به الحضارة المصرية القديمة من مكانة خالدة في العالم, .

أما في الجانب العلمي ، فإن العربية ، وأي لغة في العالم لا يمكنها تحقيق المكانة العالمية إلا إذا احتوت على منجزات علمية مهمة لكن المشكلة هي أن من يكتب في العلم مضطر إلى الكتابة بالإنجليزية حتي يصل علمه إلى الجميع، والحل هو الكتابة بالإنجليزية والعربية ماكليش : " أقام العرب في كل مكان من مملكتهم الواسعة مكتبات عامة ومراصد ومراكز للبحث .. وجهد العلميون العرب في تسجيل كل قدر من المعرفة وصلت إليه البشرية ، وفي تطويره إلى آفاق أوسع وقد نفذوا برامج ضخمة لنشر أعمالهم العلمية و الرياضية ، ولترجمة أعمال من السريانية والفارسية والصينية واليونانية ولغات أخرى)**(مراد محمد - ص254)** .

كما استثمروا ، أكثر من أي باحثين آخرين في أي حضارة قبلهم ، معيار الممارسة والتجربة في البحث عن الحقيقة العلمية ، ربما يكون قد فاتهم التخيل المفرط الذي كان لدى اليونان لكنهم عوضوا عن ذلك بالشمولية وبالاستشراف العملي ". لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر للميلاد من النقطة التي بدأ العرب منها نهضتهم العلمية في القرن الثامن للميلاد ، وهناك البعض من مفكري وعلماء وفلاسفة الغرب من يعرض التطور الحضاري، والعلمي منه خاصة، من الفترة اليونانية ويتكلم عن العبقرية اليونانية أو المعجزة اليونانية ، ويقفز إلى العبقرية أو المعجزة الأوروبية الغربية كاستمرار للحضارة اليونانية ، دون ذكر للحضارة العربية ، وهذا تجني وتحامل وعدم أمانة للتاريخ ، وعدم احترام للحقيقة التاريخية .

من الممكن أن يجهل البعض جوانب وصفحات من تاريخ العلم ، ولكن مع اكتشافها يجب أن نتوخى الدقة والأمانة العلمية ، وهذه مهمة العلماء العرب قبل غيرهم.. ويجب أن ننسب الاكتشافات العلمية ، التي تعرف الآن بأسماء علماء غربيين ، إلى أصحابها الأصليين العرب

الذين عرفوها قبل الأوروبيين بعدة قرون . يقول وايد مان: " ... إن العرب اخذوا بعض النظريات عن اليونان ، وفهموها جيداً وطبقوها على حالات كثيرة ومختلفة ، ثم أنشؤوا من ذلك نظريات جديدة وبحوثاً مبتكرة ، فهم بذلك أسدوا إلى العلم خدمات لا تقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن وفارادي وغيرهم ..". نحن بأمس الحاجة لاستمداد الماضي، واستلهامه عزماً وقوة لا مباهاة وفخراً، لمعرفة الحاضر ، والانطلاق نحو المستقبل بأمل وثقة .

دور اللغة العربية في تطور المجتمع بصورة عامة :

اللغة ظاهرة من أهم الظواهر الاجتماعية ووسيلة من أنجع وسائل الرقي الحضاري فهي الأداة الطيعة لأفراد المجتمع للإفصاح عما في أذهانهم ففي مفرداتها سجل لأخلاق أهلها وعاداتهم ونشاطهم الأدبي والفكري ، واللغة هي المؤثر القوي في السلوك الإنساني والموجه الفذ للذهن والعقل والشعور .

إن قضية اللغة العربية تمسنا جميعا ، ولا يمكن بناء مجتمع معرفي عربي أصيل أو القيام بتنمية بشرية جدية ، دون أن تلعب اللغة العربية دورا محوريا في جميع مناحي حياتنا ومجالاتها. وتتأثر اللغة بحضارة الأمة ، ونظمها ، وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ، ونظرها الى الحياة وشئونها الاجتماعية العامة ... وما الى ذلك فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب .

فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما ، وفي ضوء خصائصها في كل مرحلة منها يمكن استخلاص الأدوار التي مر بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم .

فكلما اتسعت (حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ، ومرافق حياتها ، وفي تفكيرها ، وتهذيب اتجاهاتها النفسية ، ونهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معاني مفرداتها ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة ...هلم جرا)(الواحد وافي - ص11) .

واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول فقد كان لانتقال العربي الضيق الذي امتازت به مدينتهم في عصر بني أمية الى الأفق العالمي الواسع الذي تحولوا إليه في عصر بني العباس ، كان لهذين الانتقالين أجل أثر في نهضة لغتهم ورقى أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

وانتقال الأمة من البداوة الى الحضارة يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ويوسع نطاقها ، ويزيل ما عسى أن يكون بها من خشونة ، ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة ، وان موازنة بين حالة اللغة العربية في عهد بداوة العرب قبل الاسلام وحالتها في عهد عصر ما وما كانت عليه في الحضر في نفس هذا العصر لأصدق برهان على ذلك .

ومظاهر النشاط الاقتصادي تطبع اللغة كذلك بطابع خاص في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها ، ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة في الأمم والمناطق تبعا لاختلافها في نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة (الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، الصيد ، رعى الاغنام ....الخ) ، وقد تؤثر هذه المظاهرات في أصوات اللغة نفسها .

فقد يؤدي العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما الى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتي .

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها في شئونهم الاجتماعية العامة ، فعقائد الأمة وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة وميلها الى الحرب أو جنوحها الى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة ...

كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها في الأصوات ، والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب .

وهي تضطلع بوظائف عديدة في حياتنا اليومية. ويصف الباحث الألماني هارمان الوظائف المتنوعة للغة بقوله: "بالإضافة إلى إنشاء شبكة للمعرفة حول العالم، فإنّ اللغة تخدم أيضا للتعبير عن المشاعر والاتجاهات والقيم، لقول الأكاذيب وللمراوغات، للشتم والإهانة، للمديح والتوبيخ. اللغة هي وسيلة تعمل أشياء للناس وتسبب ردود فعل إيجابية وسلبية. تمكّن اللغة الشخص بأن يجرب الفرح مثلاً سماع اعتراف بالحب ، أو إراحة باله أو بالها ، مثلاً من خلال كلمات التعزية أو الصلاة. ويمكن أن تكون للكلمات تأثير مدمّر مثلاً عندما تكشف صحيفة عن إشاعة حول فضيحة مزعومة ، أو يمكن للكلمات أن تؤثر على وجود مجتمعات بكاملها كما هو الحال في الإعلان عن الحرب.

إن اللغة وسيلة لنوايا الإنسان ويمكن أن تكون نوايا مستعمليها إيجابية ينتج عنها انسجاما في التفاعل ، أو سلبية ينتج عنها إنشاء التحيز والآراء الثقافية المسبقة".

وعليه فإنّ للغة علاقة بجميع مناحي حياتنا، وفي مقدمتها التعبير عمّا يختلج في صدورنا. وفي الوقت ذاته ، (تمتاز هذه العلاقة بالتعقيد، والتركيب، والتنوع، والتشعب، وهي ليست مجرد وسيلة اتصال وتواصل فحسب ، وإنما هي منظومة من الإشارات والدلالات أيضا حيث تعدّ اللغة من أهم أدوات التنشئة الاجتماعية للفرد والمجموعة،)**(مراد محمد ـ ص67)** .

ومن أهم مكوِّنات الهُوّية الفردية والجماعية، فهي ترسم الحدود الذهنية والثقافية والقومية بين الناطقين بها كلغة أم ، وبين "الآخر". واللغة تمثل ذاكرة الأمة ، وهي الوعاء الحاضن لمفاهيمها وقيمها.

قائمة المصادر والمراجع :

أولا : المصادر :

ـ القرآن الكريم

ـ البيان والتبيين (لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ـ دار الفكر ـط4ـ بدون تاريخ
الصاحبي ـ (في فقه اللغة) ـ 0لأبي الحسين أحمد بن فارس الرازي ـ تحقيق : السيد أحمد صقر ـ عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة .
ـ تأويل مشكل القرآن(لابن قتيبة) ـ شرحه ونشره :السيد صقر ـ دار التراث ـ الطبعة الثانية ـ 1393ه/1973.
ـ معجم مقاييس اللغة لابن فارس ـ تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ـ مصطفى الابي الحلبي ـ ط2ـ 1389هـ ـ 1969.
التعريفات ـ (السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد الزين أبي الحسن الحسيني الجرجاني الحنفي) تحقيق : د عبد الرحمن عميرة ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ 1987.

ثانيا : المراجع :

اللغة والمجتمع ـ (علي عبد الواحد وافي) ـ دار نهضة مصر ـالقاهرة ـ بدون تاريخ .
علم اللغة العربية ـ (محمود فهمي حجازي) ـ دار الثقافة ـ مصر ـ بدون تاريخ .
خصائص اللغة العربية ـ (محمد حسن حسن جبل) ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة .1986.
اللغة العربية في إطارها الاجتماعي ـ (مصطفى لطفي) ـ معهد الإنماء العربي ـ بيروت ـ 1981.
ـ التمهيد في علم اللغة (محمد خليفة الاسود) ـ جامعة الزاوية ـ ليبيا ـ 1425م ـ ط2. ـ
جواهر الادب ـ (أحمد الهاشمي) ـ دار التاث العربي ـ بيروت ـ1999.
ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ (زيدان جرجي)ـ دار الفكر بيروت ـ2005 .
ـ تاريخ التمدن الاسلامي ـ (زيدان جرجي) ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ بدون تاريخ .
ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ (محمد دياب) ـ المجلس الاعلى للثقافة ـ القاهرة ـ 2003.
ـ المقدمة (ابن خلدون) ـ دار الفكر ـ بيروت ـ 2007.